التفكير اللساني في كتاب سر الفصاحة
لابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) – قراءة وتوجيه

د. معن توفيق دحام
قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات
جامعة الموصل

ABSTRACT

This research aims at dis covering the langnage of oratorical expression among the ancients in langnisic basis for phonotic preposition speech and langnage.

It stndies the accurate of phrase in ibin sinan Al_khafaje and ciarifes the concepts and oratovical technicai tarms in siv AL_fasaha book in order to variate in stndying the pure Arabic langnge.

الملخص

البحث محاولة للكشف عن لغة التعبير اللساني عند القدماء في باب التاصيل اللغوي (للصوت والحرف والكلام واللغة) ودقة العبارة عند ابن سنان الخفاجي مع وجود مفاهيم ومصطلحات لسانية كشفت الدراسة عنها جاءت في كتابه (سر الفصاحة) تمهيدا للتوسع في دراسة الفصاحة.

المقدمة

"بسم الله الرحمن الرحيم وبه أثق، الحمد لله الذي هدانا لهذا وم ا كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق صلوات الله عليهم وعلى سيدهم محمد والأبرار من عترته الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

أما بعد:

فإني لما رأيت الناس مختلفين في مائيۃ الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها وجملة من بيانها وقربت ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل . ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال ولا مع الإسهاب إلى الإملال ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق. اعلم أن الغرض

بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته لتقع الرغبة فيه..."[1]، أحببنا أن نذكر نص مقدمة ابن سنان الخفاجي لانها تبين منهجه في تأليف كتاب سر الفصاحة وهي مادة البحث وميدان الدراسة والتطبيق.

من هنا جاءت خطة البحث وهي: توطئة قراءة في مقدمة الكتاب سابقة للمباحث الأربعة تمثلت في المبحث الأول بعنوان: (فصل في الأصوات)، وقد تم التركيز فيه على مسائل أهمها دلالة الصوت في الدرس اللغوي ومسالة إدراك الصوت، أما المبحث الثاني فقد تسمى بـ: (فصل في الحروف)، وقد حاولنا أن نبرز فيه أهم المسائل ومنها التوسع الدلالي لمعنى حرف، والمنهج التعليلي مرتبطا بالتوجيه اللغوي، ودراسة الحروف والمقاطع وما يلحق الحروف من الاستعمال الفصيح ومما لا يحسن، أما المبحث الثالث: (فصل في الكلام)، وقفنا عند المسائل الآتية الفرق بين مصطلح الكلام والكلمة والكلم، والاستدلال على صحة تسمية مصطلح الكلام، والكلام عند النحاة وأهل اللغة بين الخاص والعام، ومسالة الكلام والحدث، والكلام والفاعل، وأقسام الكلام، ومسالة إعجاز القرآن، وجاء المبحث الرابع بعنوان: (فصل في اللغة)، وقد تضمن مسالتان وهما: مفهوم مصطلح اللغة، وخصائص اللغة العربية، وكما بدأنا بمقدمة الكتاب ختمنا بما ختم الخفاجي كتابه بإضاءة (فصل فيما يحتاج مؤلف الكلام الى معرفته)، وهي رسالة لسانية الى المهتمين بمادة الإنشاء والتعبير والكتابة الأدبية، أما المنهج فهو منهج وصفي تعليلي أي إبراز الظاهر اللغوية ثم التعليل لها وفق رؤية الاستدلال اللساني وطريقة تعضيد ا لشاهد او الحدث اللغوي ثم خاتمة ونتائج البحث.

ختاما نسال الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل المتواضع خدمة للعلم وأهله وخدمة للتراث العربي وإبراز جهود العلماء في مصنفاتهم التي هي من كنوز الأرض، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

توطئة مقدمة كتاب سر الفصاحة

إن الناظر في مقدمة الكتاب يمكن أن يقف عند المسائل الآتية:

المسألة الأولى: الغرض والسبب في تأليف الكتاب وهو (معرفة حقيقة الفصاحة) والعلة في ذلك الاختلاف في ماهية الفصاحة وحقي قتها فقال[2]: "فإني لما رأيت الناس مختلفين في م ائية الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها وجملة من بيانها وقربت ذلك على الن اظر وأوضحته للمتأمل، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال ولا مع الإسهاب إلى الإملال ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق، اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته لتقع ونقده فيه...".

---

(1) ينظر مقدمة كتاب سر الفصاحة، قدم له: إبراهيم شمس الدين، بيروت، ط/١، ٢٠٠١م/٣٩.

(2) سر الفصاحة/٣٩.

المسالة الثانية: معرفة حقيقة الفصاحة وأسرار التعبير اما عن طريق إدراك العلوم الأدبية باعتبار نظم الكلام وحسن تأليفه، وإما عن طريق العلوم الشرعية فالاعتبار مرجعه إلى الإعجاز البياني القائم على الفصاحة، فقال[1]: "اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته لتقع ونقده فيه فنقول : أما العلوم الأدبية فالأمر في تأثير هذا العلم فيها واضح لأن الزبدة منها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة م ا يختار منه مما يكره. وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة بل هو مقصور على المعرفة بها . فلا غنى للمنتحل الأدب عما نوضحه ونشرحه في هذا الباب ، وأما العلوم الشرعية فالمعجز الدال على نبوة محمد نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو القرآن والخلاف الظا هر فيما به كان معجزا على قولين: أحدهما أنه خرق العادة بفصاحة وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية ، وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر ، والقول الثاني : أن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة إلى تحقق الفصاحة...".

المسالة الثالثة: حقيقة الأصوات ومخارج الحروف مدخل الى دراسة فصاحة الكلام وفيه إشارة الى نظم الكلام وذكر الغاية من ذلك تميزا للكتاب عما ذكره المتكلمون الذين لم يبي نوا مخارج الحروف واحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها، وأصحاب النحو الذين لم يوضحوا تفصيل ذلك، وأهل نقد الكلام وهم البلاغيون الذين هم فرع في الحديث عن الأصوات وحقيقة الكلام[2].

المبحث الأول: فصل في الأصوات[3]

أول ما بدا بذكره ابن سنان الخفاجي الكلام في الأصوات وهي إشارة لسانية الى انتظام الحدث اللغوي وترتيب معاني الألفاظ، واهم المسائل الذي أشار إليها الخفاجي في هذا الفصل:

المسالة الأولى: الاستدلال اللغوي المعجمي لدلالة (صوت) القائم على بيان أن الصوت لفظ عام ولا يختص لتنوع الاستعمال فنقول صوت الإنسان وصوت الحمار ومنه الشاهد القرآني: {إِنَّ أَنْكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} سورة لقمان/١٩، وهو توجيه لساني باعتبار ضابط الاستعمال القرآني وهو أفصح الكلام واعظمه، وان لفظ الصوت مذكر بدليل انه مصدر كالضرب والقتل، وقد تأتي

---

(١) سر الفصاحة /٣٩-٤٠.

(٢) ينظر المصدر نفسه /٤٠.

(٣) تنويه تم اختيار جميع عناوين البحث وفق اختيار الخفاجي في كتابه فبدا بذكر الأصوات وختم بذكر اللغة.

بمعنى الاستغاثة نقول هذه الصوت فيستعمل مؤنثا على التأويل، وعليه قول الشاعر : يا أيها الراكب المزجي مطيته بلغ بني أُسدٍ ما هذه الصوت(١)

إن دراسة فروع اللغة العربية ينبغي دراسة الألفاظ ومفردات اللغة وثروتها اللفظية وجمعها مع دلالالتها في مصنفات تدرس في مجال الدرس المعجمي، أما دراسة التنوع الدلالي وما يصيب ألفاظ اللغة مثل التخصص والتعميم والإطلاق والتقييد وهو مفهوم لساني يعد حلقة من حلقات مباحث اللغة(٢).

المسالة الثانية: مسالة إدراك الصوت فقد أشار الخفاجي الى استدلال منطقي لبيان ذلك بانه معقول ويستلزم العقل الإدراك لأنه موجود وله إدراك حسي سواء بنطقه او سماعه وهذا الاستدلال يبين اهتمام العلماء بأصول الاستعمال المعجمي للكلمة بلن تكون حسية وتتطور الى الاستعمال المعنوي وكذلك الاستدلال بان الصوت عرض وليس بجسم ولا صفة لجسم بدليل إدراك الصوت سمعا، هذا من جانب ومن جانب آخر إشارة الى ما يترتب على هذا الاستنتاج المنطقي وهو ان الإدراك يتعلق بأخص صفات الذوات فالصوت عرض ، والأجسام متماثلة غير مدرك بالسمع فقال(٣): "والصوت معقول لأنه يدرك ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك. وهو عرض ليس بجسم ولا صفة لجسم ، والدليل على أنه ليس بجسم أنه مدرك بحاسة السمع والأجسام متماثلة والإدراك إنما يتعلق بأخص صفات الذوات. فلو كان جسما لكانت الأجسام جميعها مدركة بحاسة السمع وفي علمنا ببطلان ذلك دليل على أن الصوت ليس بجسم "، لان الصوت يدرس مجال الأصوات النطقية والسمع والإدراك وكذلك المقطع وعلم الأصوات الوظيفي(٤).

ونجد الإشارة الى المعيار النطقي في إدراك الاصوت المختلفة فالراء مخالفة للزاي وكذلك سائر الحروف المختلفة، وهذا استدلال على أن الصوت ليس بجسم لان الاجسام متماثلة والأصوات تدرك مختلفة وهي ليست بصفة لجسم لان الاعتبار في ذلك تجدد الصوت وكذ لك كونه مدركا فقال(٥): "وإذا كنا دللنا على أن الصوت ليس بجسم فالذي يدل على أنه ليس بصفة لجسم بل هو ذات مخالفة له أن الصوت لو كان صفة لم يخل من أن يكون صفة ذاتية أو غير ذاتية ولا يجوز أن يكون صفة ذاتية لتجدده وأن دوامه غير واجب. ولا يجوز أن يكون صفة غير ذاتية لما بيناه من أن الأدراك لا يتناول إلا الصفات الذاتية والصوت م درك بلا خلاف ومع الدلالة على أن الأصوات أعراض ففيها المتماثل والمختلف "، وهناك مفهوم للمماثلة والمخالفة ،

(١) ينظر سر الفصاحة/٤٢.

(٢) ينظر علم اللسان العربي، د.عبد المجيد مجاهد،الشركة العربية المتحدة، القاهرة،٢٠١٠م/١١.

(٣) سر الفصاحة/٤٣.

(٤) ينظر في اللسانيات ونحو النص، د.إبراهيم خليل، دار المسيرة، الأردن، ط/١، ٢٠٠٧م/٥٥،٤٧،٤٤.

(٥) سر الفصراحة/٤٥.

فللأصوات المتجاورة تميل "بصورة عامة الى التماثل وتدع ى هذه الظاهرة المماثلة مثال ذلك(التفاح) حيث تحولت /ل/ في ال التعريف الى /ت/ لتماثل /ت/ في كلمة تفاح.."[1]، اما "المخالفة هي ان يتعدل صوت او يتغير ليخالف صوتا مجاورا له مثال ذلك (ولدانَ) التي تتحول الى ولدانِ.."، وكما توجد مماثلة تجاورية ومماثلة تباعدية توجد مخالفة تجاورية وتباعدية[2].

المسالة الثالثة: التضاد ومرجعه الى الاختلاف وذلك بالاستدلال على الجمع بين الألوان والصوت وتضادهما من طريقين "أحدهما: أن حمل الصوت على اللون من حيث كان إدراك كل واحد منهما مقصوراً على حاسة واحدة فلما قطع على تضاد المختلف من الألوان قال بمثل ذلك في الأصوات. والطريق الثاني : أن الصوت مدرك فهو هيئة للمحل إذا أوجب مختلفة هيئتين استحال اجتماعهما للمحل في حالة واحدة كما يستحيل ذلك في الألوان وليس بعد امتناع اجتماعهما في المحل الواحد في الوقت الواحد إلا التضاد"[3].

ولكن هناك فرق بين إدراك الألوان وإدراك الأصوات حسيا وان اتفقا إدراكا، فللأول يدرك بالنظر مع إمكانية تفاوت إدراك اللون الواحد وتدرجه أيضا، أما الأصوات فتدرك بالسمع مع إمكانية وجود التدرج في مخارج الحروف ولكن لكل صوت صفته التي تميزه من غيره ، وهناك تقسيم للأصوات باعتبار ما لها ضد وما ليس لها ضد.

المسالة الأخيرة: الانتقال والتنوع الإدراكي بين الصوت والحرف ، قال الخفاجي[4]: "والأصوات تدرك بحاسة السمع في محالها ولا تحتاج إلى انتقال محالها وانتقالها وكونها أعراضا منع من انتقالها. وقد استدل على ذلك بأنها لو انتقلت لجاز أن تنتقل إلى بعض الحاضرين دون بعض حتى يكون مع التساوي في القرب وا لسلامة يسمع الصوت بعضهم دون بعض وأن يجوز إختلاف انتقال الحروف حتى يدرك الكلام مختلفا . واستدل على ذلك أيضاً بأنه : لو احتيج في إدراك الأصوات إلى انتقال المحال لما وقع الفرق مع السلامة بين جهة الصوت والكلام مكانهما كما أنه لا يعرف في أي جهة انتقل إلى محل ما ي لاقيها من الأجسام التي يدرك منها الحرارة والبرودة..."، وهذا كلام دقيق وتعليل يبرز لنا الفرق بين نطق الصوت وادراكها في محلها وبين جواز اختلاف انتقال الحروف لندرك الكلام حدثا لغويا مرتبط بمكان وزمان وهو من مقومات الكلام و "هي جملة الركائز الفعلية التي يستند اليها خروج الكلام من صورته النظرية الكلية التي صورة الحدث المنجز وهو ما يفضي بالبحث عن معطيات التشكيل اللساني بما يجعله معطى

---

(1) الأصوات اللغوية، د. محمد علي الخولي، دار الفلاح، الأردن،١٩٩٠م/٢١٩.

(2) ينظر تفصيل ذلك المصدر نفسه/٢٢١.

(3) سر الفصاحة/٤٥، ينظر الإعجاز الصوتي في القرا ن الكريم، د. عبد الحميد هنداوي، الدار الثقافية، القاهرة، ط/١، ٢٠٠٤م/٢٥.

(4) سر الفصاحة/٤٧.

مدركا بالحس والعقل حيث ان التشكيل يقتضي خروج الظاهرة من حيز الوجود المجرد الى حيز المعطى المتلابس مع الموجودات الموضوعية"[1].
ويختم الخفاجي فصل الأصوات بقوله[2]: "والصوت يخرج مستطيلا ساذجا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا . وسنبين ذلك".

المبحث الثاني: فصل في الحروف

إن أهم المسائل التي تعرض لها الخفاجي في هذا الفصل يمكن أن نوجزها بما هو آت:

- الدرس اللغوي وتأصيل معنى (حرف) معجميا، مع بيان للتنوع في مجالات الاستعمال اللغوي بين التأصيل والتعليل والاستقراء، فنجد على سبيل المثال لا الحصر عبارة (الحرف في كلام العرب)[3] وهي إشارة الى الظاهرة اللسانية في المتعارف عليه في سنن العرب وفق لغتها ومنطق كلامها.
- الاستدلال بأقوال العلماء في توجيه الشاهد القرآني فقد ذكر تفسير ابي عبيد معمر بن مثنى في "قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } أي لا يدوم . وفسره أبو العباس أحمد بن يحيى أي على شك . وكلا التأويلين على ما قدمناه لأن المراد أنه غير ثابت على دينه ولا مستحكم البصيرة فيه فكأنه على حرفه أي غير واسط منه "[4]، فنجد المنهج التعليلي مع الربط التناسبي بين أقوال العلماء.
- وكذلك المنهج التعليلي من باب بيان أسماء المسميات مع تعليل التسمية في الا ستعمال اللغوي كما في قول الخفاجي [5]: " وسميت الحروف حروفاً لأن الحرف حد منقطع الصوت. وقد قيل: إنها سميت بذلك لأنها جهات للكلام ونواح كحروف الشيء و جهاته"، وفي موضع آخر قال أيضا[6]: "ومنه سمى مكسب الرجل حرفة لأنه الجهة التي انحرف إليها. وسموا الميل محرافاً لدقته".
- ومن الاستعمال اللساني توجيه قول القائل (حرف ابي عمرو) والمراد عند الخفاجي ان الحرف كالحد م ا بين القراءتين او باستدلال أوضح في الأداء الصوتي وهو معيار دقيق

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية، د.عبد المجيد المسدي، دار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨١م/٢٤٦.
(٢) سر الفصاحة/٤٨.
(٣) ينظر المصدر نفسه/٤٩.
(٤) ينظر نفسه/٤٩.
(٥) سر الفصاحة/٤٩.
(٦) المصدر نفسه/٥٠.

فقال[١]: "والمعنى: أن القارىء يؤدي حروف أبي عمر وبأعيانها من غير زيادة ولا نقصان"، وقد يكون المراد من الحرف دلالة الحروف.

- الاختلاف في التسمية مظهر من مظاهر الحدث اللساني نجده في مبحث توجيه المعاني في منهج الخفاجي الاستدلالي وهو يبرز لنا ذلك الأثر اللساني الذي ينضوي تحت دائرة فقه اللغة تمثل في قوله [٢]: "وقد اختلفوا في تسمية الناقة الضامر حرفاً فقال قوم: أي أنها قد حددت أعطافها بالضمر وقال أبو العباس أحمد بن يحيى : لأنها انحرفت عن السمن . وقال غيره: شبهت بحرف الجبل في الشدة والصلابة ، وزعم بعضهم: أنها شبهت بحرف السيف في مضائه. وقال آخرون: شبهت بالهاء من الحروف لدقتها وتقويسها . وكل هذا راجع إلى ما تقدم".
- نقف عند عبارة (أدوات المعاني) عند علماء العربية وعبارة (حروف المعجم) التي في لغة العرب ومناقشة الخفاجي معللا سبب تسميتها : "أما تسمية أهل العربية أدوات المعاني نحو: من وقد حروفا فإنهم زعموا أنهم سموها بذلك لأنها تأتي في أول الكلام وآخره

فصارت كالحروف والحدود له. وقد قال بعضهم: إنما سميت حروفاً لانحرافها عن الأسماء والأفعال. وهي عندنا نحن كلام لأنها منتظمة من حرفين فصاعداً "، ونجد عبارة (وهي عندنا نحن كلام) مقترنا بضابط التعليل بعد ها في عبارة (لانها منتظمة من حرفين فصاعدا)، ونجد التوجيه اللغوي في منهج الخفاجي في عبارته : "وأما قولهم للحروف التي في لغة العرب حروف المعجم فليس بصفة للحروف لأن ذلك يفسد من وجهين أحدهما : امتناع وصف النكرة بالمعرفة ، والثاني: إضافة الموصوف إلى صفته والصفة عند النحويين هي الموصوف في المعنى ومحال أن يضاف الشيء إلى نفسه "، والمعجم بمنزلة الاعجام أي باعتبار تقدير المصدر مثال: ادخلته مدخلا والمراد ادخالا.

ومن الآراء الشخصية في توجيه عبارة (حروف المعجم) انه ليس من باب ذكر الصفة وحذف الموصوف فقال الخفاجي [٣]: "وليس كذلك حروف المعجم لأنه ليس معناه حروف الكلام المعجم ولا حروف اللفظ المعجم. وليس يبعد عندي ما أنكره أبو الفتح بل يجوز أن يكون التقدير: حروف الخط المعجم لأن الخط العربي فيه أشكال متفقة لحروف مختلفة عجم بعضها دون بعض ليزول اللبس. وقد يتفق في غيرها من الخطوط أن تختلف أشكال الحروف فلا يحتاج إلى النقط فوصف الخط العربي بأنه معجم لهذه العلة . وقيل: حروف المعجم أي حروف الخط المعجم كما يقال: حروف العربي أي حروف الخط العربي ..."، وهو من باب تقارب الاستعمال اللغوي مع تصويب المعاني والضابط تقدير المحذوف مع بيان علة الاستعمال.

---

(١) نفسه/ الصفحة نفسها.

(٢) نفسه/ الصفحة نفسها.

(٣) سر الفصاحة/٥١.

- الاستدلال الصرفي على تقوية ا لحجة وهو من طرق البيان اللساني فقال [١]: "فإذا قيل أعجمت الكتاب فمعناه ازلت ابهامه كما يقا ل اشكيته إذا إذا أزلت ما يشكوه .لأن هذه اللفظة في كلام للابهام والخفاء . ومنه: رجل أعجم.... وعجم الزبيب وغيره أي المستتر فيه. وسموا صلاتي الظهر والعصر: عجماوين لأنه لا يفصح بالقراءة فيهما".

المسالة الثانية: الحروف ومقاطع الصوت ، ويمكن ان نقف عند عبارتين في م نهج العلماء القدماء وهما:

العبارة الأولى قول الخفاجي (والحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت) والمقصد هنا الأداء الصوتي في نطق الحروف وان الاختلاف في الحدث اللساني في تنوع سماع الأصوات مرجعه الى اختلا ف موقع الحرف عند النطق به فقال [٢]: "والحروف تختلف بأختلاف مقاطع الصوت حتى شبه بعضهم الحلق والفم بالناي لأن الصوت يخرج منه مستطيلاً ساذجاً فإذا وضعت الأنامل على خروقه ووقعت المزاوجة بينها سمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم بالإعتماد على جهات مختلفة سمعت الأصوات المختلفة التي هي حروف. ولهذا لا يوجد في صوت الحجر وغيره لأنه لا مقاطع فيه ل لصوت وليس يحتاج إلى حصر الحروف التي يتعلق بها . وإنما الغرض ذكر ما في اللغة العربية التي كلامنا عليها لأن في غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها كلغة الأرمن وما جرى مجراها "، وهو من باب الأدب المقارن، وبين الحرف والصوت تميز "فالصوت هو الذي نسمعه ونحسه والحرف هو الرمز الكتابي الذي يعبر عن صوت معين او مجموعة أصوات لا يؤدي تبادلها فيما بينها في الكلمة الى اختلاف في المعنى، والحرف بذلك ي كون اعم من الصوت لانه يضم من الأصوات ما ينسب الى رمز معين، والصوت يكون احد افراد تلك المجموعة وهذه التفرقة بين الصوت والحرف تطابق ما ذهب اليه المحدثون من علماء الأصوات، اما علماء العربية القدامى فانهم كانوا يستخدمون الكلمتين بمعنى واحد احيانا ويفرقون بينهما أحيانا تفرقة تختلف عما يعنيه المحدثون بهما"[٣].

اما العبارة الثانية فهي قول الخفاجي (ان الهمزة لا صورة لها) مع البيان التعليلي لظاهرة ثنائية الخط واللفظ ، والحديث عن عدد حروف اللغة العربية وهي تسعة وعشرون حرفا ذكرها الخفاجي جميعا مرتبة على المخارج وأول ما ذكر الهمزة، ويذكر قول ابي العباس محمد بن يزيد المبرد الذي لا يعتد بالهمزة وعدد الحروف ثمانية وعشرين حرفا والعلة ان الهمزة لا صورة لها

(١) المصدر نفسه/ الصفحة نفسها.

(٢) نفسه/٥٢.

(٣) علم الأصوات اللغوية، د.مناف مهدي الموسوي، دار الكتب العلمية، بغداد، ط/٣، ٢٠٠٧م/١١٢.

وهو مرفوض عند الخفاجي فقال [١]: "واعتلاله بأن الهمزة لا صورة لها مستكره غير مرضى لأن الاعتبار باللفظ دون الخط وهي ثابتة فيه . ولو أن العرب خط لها كغيرها من الأمم لم يمنع ذلك من الاعتداد بجميع هذه الحروف المذكورة"، ويذكر قاعدة في ان اللفظ أصل للخط والخط فرع عليه وهذا القول منسوب الى ابن جني.

ونود أن نبين أن الهمزة لها صور معروفة في ا لكتابة، وان هناك تمايز لهمزة الوصل من همزة القطع، وهناك تفصيل في الحديث عن همزة الوصل [٢].

المسالة الثالثة: ما يلحق الحروف مما يحسن استعماله في الفصيح من الكلام وبعضها لا يحسن فقال[٣]: "فالتي تحسن ستة أحرف وهي : النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم والهمزة المخففة وألف الإمالة وألف التفخيم وهي التي بها ينحا نحو الواو وذلك كقولهم في الزكاة : الزكاوة والصاد التي كالزاي نحو قولهم في مصدر مزدر والشين التي كالجيم نحو قولهم في أشدق أجدق . والحروف التي لا تستحسن ثمانية وهي الكاف التي بين الجيم والكاف نحو كلهم عندك والجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل ركل والجيم التي كالشين نحو قولهم خرشت والطاء التي كالتاء كقولهم طلب والضاد الضعيفة كقولهم في أثرد أضرد والصاد التي كالسين في قولهم صدق والظاء التي كالثاء كقولهم ظلم والفاء التي كالباء كقولهم فرند "، وهذا من بديع التقابل بين الألفاظ صوتيا على وفق معيار التجاور اللفظي ، وهذا يكشف عن مقاصد الخطاب وما يقوم به من الأداء اللغوي من خلال الوظائف اللسانية وهي وظيفة اجتماعية ووظيفة نفسية ووظيفة فكرية تجمع بين الفكر والعاطفة في إدراك الحدث[٤].

المسالة الرابعة: الاعتبار اللساني في ذكر وتفصيل مخارج الحروف و كذلك صفاتها فقد ذكر الخفاجي تفصيل مخارج الحروف وهي ستة عشر مخرجا، وذكر صفات الحروف وهي الحروف المجهور والمهموس والرخو والشديد وما بين الرخو والشديد وذكر المنطبقة والمنفتحة وحروف الاستعلاء وحروف الانحفاض وحروف الذلاقة ، ونلحظ التوصيف اللساني لصفات الحروف بين عرض صفاتها ومعانيها، فنجد عبارة (ومعنى الجهر في الحرف) و(معنى الهمس) و(معنى الاطباق) و(معنى الاستعلاء) و(معنى الذلالقة) ويمكن ان نسميها مصطلحات لسانية[٥].

---

(١) سر الفصاحة/٥٢.

(٢) ينظر المصدر نفسه/٥٤.

(٣) نفسه/٥٤.

(٤) ينظر علم اللغة، د.حاتم الضامن، التعليم العالي، الموصل، ١٩٨٩م/١٣٣-١٣٤.

(٥) ينظر سر الفصاحة/٥٤-٥٦.

المسالة الخامسة: الإيجاز في منهج الخفاجي نلحظ ذلك في خاتمة فصل الحروف مؤكدا اهمية إدراك البحث اللساني والأداء الصوتي لمعرفة حقيقة الفصاحة قال[١]: "وإنما أربنا ذكر مالا يستغنى عنه طالب معرفة الفصاحة التي لها يقصد وإليها ينحو فأما ما سوى ذلك فا للمحة تقنع منه واللمعة تغنى فيه وفيما أردناه من أقسام الحروف وأحكامها في هذا الفصل مقنع ولا يليق به الزيادة عليه والإسهاب لأنه كالطريق الذي يجتاز فيه إلى مرادنا ونتوصل بسلوكه إلى مقصدنا فالليث به غير واجب والريث فيه غير محمود".

المبحث الثالث: فصل في الكلام

واهم المقاصد اللغوي هو بيان ضوابط الكلام ويمكن أن نقف عند المسائل الآتية:

المسالة الأولى: مصطلح الكلام والكلمة والكلم فقال[٢]: "الكلام اسم عام يقع على القليل والكثير، وذكر السيرافي أنه مصدر والصحيح أنه اسم للمصدر والمصدر التكليم قال الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}،....فأما الكلم فإنه اسم يدل على الجنس هكذا مذهب أهل النحو في الأسماء التي يكون فيها الاسم على صورتين تارة بالهاء وتارة بطرحها نحو تمرة وتمر وبسره وبسر وما أشبه ذلك. على أن بعضهم قد جعل الكلم جمع كلمة لكن الأحرى على مذهبهم ما ذكرناه ،.... وقد استدل على أن الكلام ليس بمصدر بأن الفعل المستعمل منه إنما هو كلمت وفعلت يأتي مصدره في القياس على مثال التفعيل نحو : كسرت تكسيرا ولا يأتي مصدره في القياس على مثال التفعيل نحو: كسرت تكسيرا ولا يأتي على لفظ آخر".

وضابطه عند النحاة التلفظ والإفادة كما قال ابن مالك في مطلع ألفيته النحوية (كلامنا لفظ مفيد كاستقم)، وهناك فرق تكلم وبين تكالما دلالة المشاركة.

أما عند الخفاجي فضابط الكلام عنده الانتظام والإفادة في إطار هوية اللغة والحديث عن حروف اللغة العربية دون غيرها من اللغات فقال[٣]: "والكلام عندنا على ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها على ما بيناه من أننا لا نذكر إلا حروف ا للغة العربية دون غيرها من اللغات"، ثم بين علة اشتراط الانتظام والإفادة وهو من باب الاستدراك زيادة في التوضيح والاستدلال ، في بيان معاني العبارات.

المسالة الثانية: الدليل على صحة المصطلح باعتبار ذكر الشروط حتى يصح بوصفه بانه كلام وبخلافه لا يمكن تسميته كلاما، وقد قيد الخفاجي الكلام بعنصر الزمن فقال : "وإنما شرطنا الانتظام لأنه لواتي بحرف ومضى زمان وأتى بحرف آخر لم يصح وصف فعله ب أنه كلام .

---

(١) المصدر نفسه/٥٦.

(٢) نفسه/٥٧.

(٣) سر الفصاحة/٥٧.

وذكرنا الحروف المعقولة لأن أصوات بعض الجمادات ر بما تقطعت على وجه يلتبس بالحروف . ولكنها لا تتميز وتتفـصل كتفصيل الحروف التي ذكرناها "، وهذا يبين لنا المستوى النحوي بين التعليل والقياس اعتمادا على ما نطقت به العرب وموافقة الاستعمال العربي قياسا عليه [١].

ويبرز البحث مسالة منطقية تتعلق بنطق حرف واحد وهو أمر متعذر غير ممكن إذ لابد من الابتداء بمتحرك والوقوف على ساكن، وذلك أن فعل الامر (ق) و (ع) ليس كلاما والتعليل الصرفي يبين علة عدم إمكانية النطق بحرف واحد أن أصل الكلمتين هو (اوق) و (اوع) فالحذف نوع من التصريف والمحذوف مقدر في الكلا م، وهذا الكلام يورده الخفاجي ردا على عبارة ابي هاشم لان الأخرس قد يقع منه حرفان ، وهناك تميز بين اللغة والكلام فاللغة "هي نظام من القيم والعادات الرمزية والمعجمية التي تستخدمها طائفة لغوية معينة اما الكلام فهو الا ختيار الفردي لحروف اللغة"[٢]، وبه تظهر قدرة اللغة على التوسط بين الذهن والعالم الخارجي.

المسالة الثالثة: الكلام عند النحاة وأهل اللغة

ويفصل الخفاجي الحديث عن الكلام عند أهل اللغة فيقول انهم قسموه إلى قسمين مهمل ومستعمل، والفرق بينهما أن "والمهمل ما لم يوضع في اللغة التي أضيف أنه مهمل إليها لشيء من المعاني والفوائد والمستعمل هو الموضوع لمعنى أو فائدة . فلو كان الكلام هو المفيد عندهم وما لم يفد ليس بكلام لم يكونوا قسموه إلى قسمين بل كان يجب أن يسلبوا ما لم يفد اسم الك لام رأسا لا أن يجعلوه أحد قسميه على أن الكلام إنما يفيد بالمواضعة"[٣].

ويلحق هذا الكلام بيان الفرق بين الكلام والتكلم بضابط ومعيار اللسان والنطق باسلوب منطقي معتمد على طريقة السؤال والجواب فقال الخفاجي [٤]: "فإن قلت: ألست تقول لمن نطق وأظهر كلمة واحدة قد تكلم وإن لم يكن ما ذكره جملة قيل قال أقول تكلم ولا أقول قال كلاما لأن الكلام ما وقع على الجمل من حيث ذكرت أن كلاما إنما وقع على أن يكون اسما للمصدر ونائباً عنه وذلك المصدر موضوع للمبالغة والتكثير ألا ترى أنك تقول فعلت كذا وكذا ولفظ هذا يحتمل أن يكون كثيرا وأن يكون قليلا وبا به القلة وإذا قال فعلت بتشديد العين لم يكن إلا للتكثير وزا ل عنه معنى القلة من أجل التشديد".

---

(١) ينظر علم اللسان العربي، د.عبد المجيد/٦٦.

(٢) المعنى والكلمات، سعيد الغانمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد،١٩٨٩م/١٠٧.

(٣) سر الفصاحة/٥٩.

(٤) المصدر نفسه/الصفحة نفسها.

المسالة الرابعة: المنهج التعليلي في عبارة الخفاجي وهو يتكلم خفة الفعل وثقله واختلاف المعنى مع حسن التعليل والمقصد عبارة (فينبغي ان توفي حق لفظها) في قوله[1]: "أليس قد تقرر أن لفظ فعل للتكثير والتكرير فينبغي أن يوفى حق لفظها . وكونها على حالة واحدة عندي أبلغ في المعنى حتى صارت عندهم لفظة لا تستعمل إلا للمبالغة من حيث كان الكلام أجل ما يو صف به الإنسان حتى قال الشاعر(من الطويل):

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال قبل هذا البيت:

وكائن ترى من ساكت لك معجب... زيادته أو نقصه في التكلم"[2]

وبيان ذلك في عبارة (وكونها على حالة واحدة)، ويأتي الاستدلال المنطقي لموضع المبالغة في قوله[3]: "ويقال لأهل الدين والكلام عليه : فلان متكلم. فلولا أنها شيمة شريفة وصفة مبالغة لما وصف بذلك. ثم يقال للإنسان الذي يورد ما تقل فائدته : هذا ليس بكلام . فقد بان بما ذكرته موضع المبالغة في قولهم : فلان متكلم"، ومن أصول الاستدلال في منهجه أيضا معيار القلة والكثرة في توجيه الكلام بين الاستعمال الوضعي الحقيقي والاستعمال المجازي لا ن الطير لها كلام وان تكون للداهية فم وهو استعارة وهنا نجد عبارة النحاة (والقول عم) أي يعم الكلام والكلمة في متن ألفية بن مالك[4]:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم اسم وفعل ثم حرف الكلم

واحده كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم

وتعجبنا عبارة الخفاجي في البيا ن والتوضيح القائم على أسلوب الإقناع المنطقي المتحاور فيقول[5]: "ويكشف هذا المعنى للمتأمل أن العرب لشرف الكلام عندهم وأن القليل المفيد منه عندهم كثير أنهم يقولون : وقال فلان في كلمته. إنما يريدون القصيدة"، بعد ذلك يذكر الخفاجي مكانة أهل المنطق ويصفهم بأنهم أصحاب التحقيق والكشف عن أسرار المعلومات وغوامض الأشياء وان لهم منهج واضح في التعليل وكذلك بيان مكانة النحاة في طريقة تعليليهم فقد وصفهم بأنهم أهل هذا الشأن وأرباب هذه الصناعة.

---

(١) نفسه/٦٠.

(٢) والبيت لزهير بن ابي سلمى من معلقته.

(٣) سر الفصاحة/٦٠.

(٤) ينظر شرح ابن عقيل، لابن عقيل (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط/٢٠، ١٩٨٠م:١/١٦.

(٥) سر الفصاحة/٦١.

المسألة الرابعة والأخيرة: قضايا ناقشها الخفاجي وهي على النحو الآتي:

الكلام والحدث نجد ذلك في قوله [1]: "وأما قولهم أنهم لم ينطقوا في الكلام **إلا بفعل التي هي** للتكثير لشرف الكلام عندهم فذلك هو الحجة في إطلاق لفظ الكلام وتكلم على القليل الذي ليس بمفيد لما ذكره من الشرف والمبالغة. وأما استدلاله على شرف الكلام عندهم بالأبيات التي ذكرها فمما يمكن إيراد مثله إلا أن ذكره:

ومما كانت الحكماء قالت... لسان المرء من خدم الفؤاد

لا أعلم موقع الدلالة منه على شرف الكلام وهو بالدلالة على تشريف الفؤاد والوضع من اللسان بأنه خادمه أليق"، وهذا من حسن الاستدلال والمناقشة لتحديد موطن الشاهد.

- الكلام والفاعل وذلك في قوله[2]: "وأما قوله أنهم يقولون للإنسان الذي يورد ما تقل فائدته : هذا ليس بكلام قلنا ذلك وأمثاله إنما يورد على سبيل الجواز والإسراف في المبالغة . كما يقال للرجل البليد : ليس بإنسان والفرس البطيء ليس بفرس لا أن ذلك على الحقيقة . وهذا مما لا تدخل في مثله شبه ة. وأما قوله إن العرب لشرف الكلام عندهم وأن القليل المفيد منه كثير. يقولون: قال فلان في كلمته يريدون القصيدة فذلك كله هو وأمثاله هو الوجه في اقتصارهم على لفظ التكثير في الكلام أفاد أو لم يفد د ون الألفاظ التي لم توضع للتكثير "، لان الوظيفة الأساسية للغة هي ا لتعبير عن عواطف الإنسان وأحاسيسه وأفكاره فاللغة وسيلة التعبير وتتضمن رسالة التبليغ في إيصال فكرة من شخص لآخر مع تنوع وسائل توصيل الرسالة[3].

فالحدث اللغوي عند الخفاجي بمنزلة الفعل الموضوعي كالضرب وغيره "ليسلب عنه صفة الحالات كالعلم والقدرة فيكون المتكلم صانعا لحدث الكلام ويكون الكلام بالتالي من قبيل الأفعال المنفصلة عن صاحبها...."[4]، إشارة الى الترابط الموضوعي بين الكلام وصاحبه.

وقد ناقش قول بعض النحاة في تعريف الكلام بقولهم (ان الكلام فعل المتكلم): "وقد حد الكلام بحدود غير صحيحة كحد بعض النحويين له بأنه فعل المتكلم وذلك ينتقض بجميع أفعاله الحادثة منه في حال كلامه كالضرب وما أشبهه على أن من عقل كونه متكل ما عقل الكلام ولم يحتج إلى حده"[5].

- مفهوم الكلام هو الصوت قال الخفاجي بهذا المفهوم ردا على مفهوم ان جنس الكلام يخالف جنس الصوت فقال[6]: "والذي يدل على أن الكلام هو الصوت الواقع على بعض

---

(1) المصدر نفسه/٦٣.

(2) سر الفصاحة/ ٦٣.

(3) ينظر علم اللغة، د. حاتم الضامن /١٣٥،١٣٧، ينظر قضايا النقد الأدبي المعاصر، د. محمد القاسمي، دار يافا، الأردن، ط/١، ٢٠١٠ /١٢.

(4) التفكير اللساني في الحضارة العربية/٢٨٧.

(5) سر الفصاحة/٦٣.

(6) سر الفصاحة/٦٣.

الوجوه أنه لو كان غيره لجاز أن يوجد أحدهما مع عدم الآخر على بعض الوجوه لأن هذه القضية واجبة في كل غيرين لا تعلق بينهما ولما استحال أن توجد الأصوات المقطعة على وجه مخصوص ولا تكون كلاماً أو الكلام من غير صوت مقطع دل على أنه الصوت بعينه"، ويستطرد الخفاجي في بيان مسالة أخرى وهي ان الكلام ليس بمعنى في النفس بأسلوب منطقي بان يتصور سائل يسال في استعمال عبارة (فان قيل) ويأتي الجواب مفصلا.

- مفارقة بين النحو واللغة ان النحو مقيد بالتلفظ اما اللغة فهي أوسع بضابط العبارة والإشارة والحركة ودلالة الألوان وذلك في مناقشة الخفاجي مسالة الكلام والأثر النفسي فقال[1]: "وبعد فإن الإنسان قد يطلق أيضاً فيقول في نفسي بناء دار ونسج ثوب كما يقول في نفسي كلام فهل يدل ذلك على أن البناء والنساجة معنيان في النفس كما دل عندهم على أن الكلام معنى فيها . ثم أن لقول القائل في نفسي كلام وجهاً صحيحاً وذلك أن المعنى إني عازم عليه ومريد له ولهذا لو أبدلوا هذا اللفظ مما ذكر لقام مقامه في الفائدة . وأما تعلقهم بأن الساكت يقال فيه أنه متكلم فليس بصحيح لأن المراد بذلك إمكان الكلام منه أو إضافته إليه على طريق الصناعة كما يقا ل للصائغ – في حال هو لا يصوغ فيها – إنه صائغ. وكذلك سائر الصناع ثم هو مع ذلك استدلال بالمعاني على العبارات وقد بينا فساد ذلك فيما تقدم".

ومن بديع الاستنتاج عند الخفاجي تعلق الكلام بالمعاني وتعلق فوائده بالمواضعة، وجواز تعدد المسميات لاسم الواحد لاختلاف الل غات وقد يكون من باب التطور الدلالي، وكل ذلك وفق قصد المتكلم والمواضعة لان من مقومات الكلام صفة الشمول.

- أقسام الكلام فهو على قسمين (مهمل ومستعمل)، والمستعمل على قسمين (الصحيح والمفيد)، والمفيد على ثلاثة أنواع وهي (لبيان نوع من نوع مثل لون وكون، ولبيان جنس من جنس مثل جوهر وسواد، ولبيان العين مثل عالم وقادر)، أما المفيد من الكلام فعلى قسمين (حقيقة ومجاز) والتمايز بين الاستعماليين أن اللفظ الموصوف بالحقيقة هو ما وضع لأفادته والمجاز ما لم يوضع لأفادته.
- استعمال الأساليب الإنشائية الطلبية وغير الطلبية مرجعها جميعا الى أسلوب الخبر[2]، وهو من باب تناوب المعاني فالظاهر أسلوب امر او نهي او استفهام والتقدير السياقي للمعنى يرجعها الى الخبر قال الخفاجي [3]: "والكلام المفيد يرجع كله إلى معنى الخبر ومتى اعتبرت ضروبه وجدت لا تخرج عن ذلك في المعنى . أما الجحود والتنبيه والقسم

---

(1) نفسه/٥٥.

(2) والفرق بين الخبر والإنشاء ان الأسلوبين يعتمدان على النسبة الكلامية فالخبر يطبق النسبة الخارجية والانشاء لا يحتاج. ينظر أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني/٣٠٣.

(3) سر الفصاحة /٦٧.

والتمني والتعجب فالأمر في كونها أخباراً في المعنى ظاهر وأما الأمر فيفيد كون الأمر مريداً للفعل فمعناه معنى الخبر ، والنهي يفيد أنه كاره فهو أيضاً كذلك ، والسؤال والطلب والدعاء يجري هذا المجرى ، والعرض فهو سؤال على الحقيقة فأما النداء فقد اختلف فيه فقيل معنى: يازيد أدعو زيداً وهذا على الحقيقة خبر ، وقيل المراد به: أقبل يا زيد وعلى هذا المعنى فهو داخل في قسم الأمر ، وأما التخصيص فهو في معنى الأمر لأنه يغبىء عن إرادة المخصص للفعل "، والكلام فيه نظر، وهذا يحقق مفهوم (اللسانيات التواصلية) وهي تقوم "على منظومة ثلاثية الأقطاب أولها: المرسل باعتبار صاحب المباداة في التواصل، وثانيها: المستقبل باعتباره هدفا مباشرا للرسالة، وثالثها : المجتمع وباعتباره كذلك مصدر النظام الذي تبنى على أساسه هذه العملية..."(١).

مسالة إعجاز القرآن في خاتمة هذا الفصل وقد بحث الخفاجي أفكارا قبل ذلك ومنها حقيقة المتكلم والكلام لابد ان يكون بأحواله وإرادته وقصده، فلا يكون نسبة الكلام الى المتكلم على سبيل الفعلية وعليه فلا يلزم إضافة كلام النائم او الساهي إليهما فقال(٢): "والذي يدل على ذلك أن أهل اللغة متى علموا أو اعتقدوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا وصفوه بأنه متكلم ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه لم يصفوه فجرى هذا الوصف في معناه مجرى وصفهم لأحدنا بأنه ضارب ومحرك ومسكن وما أشبه ذلك من الأفعال "، وهذا يثير مسالة أخرى وهي اللفظ وما وضع له مع فساد الاعتقاد وهو من الإ شارة الى تعلق المعاني باعتبار الفهم المستعمل لها مثل الاصنام او الأوثان تدل على العبادة مع فساد الاعتقاد بها، والخفاجي يريد أن يثبت أن الكلام هو الصوت بحسب الأحوال والقصد ولذا فان الكلام يوجد في الصدى ولكن يستحيل أن يكون كلاما.

ومن المناسبة بعد القول في حقيقة الكلام والمتكلم الكلام عن الحكاية وال محكي لينقل الخفاجي الآراء مناقشا لها ويبدأ: "أن الحكاية هي المحكي وأن التالي للقرآن يسمع منه كلام الله على الحقيقة وأن البقاء يجوز على الكلام ويوجد في الحال الواحدة في الأماكن الكثيرة فيوجد مع الصوت مسموعاً ومع الكتابة مكتوباً ومع الحفظ م حفوظاً. ويجري في وجوده في الأماكن الكثيرة مجرى الأجسام ويزيد على الأجسام بأنه يوجد في الأماكن الكثيرة في الوقت الواحد والأجسام إنما توجد في الأماكن على البدل"(٣).

ويأتي بالرد على هذه المقولة : "أن الكلام هو الصوت الواقع على بعض الوجوه ولا يجوز عليه البقاء ولا يوجد إلا في الم حل الواحد والحكاية غير المحكي وإن كانت مثله . والقارئ لا يسمع منه إلا ما فعله والقراءة غير المقروء والكتابة غير الكلام وإنما هي إمارات للحروف

---

(١) اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، د.سمير شريف استيتة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط/٢٠٠٥،١م/٦٧٥، ولها ضوابط ومعايير كتعلقها بالمجتمع والمتلقي والإقناع والتأويل ينظر المصدر نفسه/٦٧٦، ٧١٤،٧٠٠.

(٢) سر الفصاحة/ ٦٨.

(٣) سر الفصاحة/٦٩.

والحفظ هو العلم بكيفية الكلام ونظمه. وعلى هذا القول أكثر الشيوخ وهو الصحيح الذي لا شبهة فيه والذي يدل عليه أننا قد بينا فيما تقدم أن الكلام هو الصوت الواقع على بعض الوجوه بما لا فائدة في إعادته. والصوت فلا شبهة في أنه غير باق لما بيناه أيضاً "، ومن هنا نجد الخفاجي قد اثار لنا قضية الحكاية وقد "ابرز طاقة الكلام على ان تتعاقب حالات وجوده على بعدي الزمان والمكان وهو ما يكسبه الى جانب القدرة الانتشارية– قدرة الانبعاث الذي هو تجديد للكينونة أصلا فالذي نستنبطه بالاستقراء والتحليل هو ان خاصية الحكاية– أي طواعية الكلام في التواجد المتجدد مبدأ يقوم معدلا لطبيعة الانقطاع في الكلام"[١].

وانتهى مطاف الفصل بالحديث عن إعجاز القرآن والتحدي على سربيل الابتداء دون الاحتذاء فقال[٢]: "أن التحدي إنما وقع بفعل مثل القرآن على الابتداء دون الاحتذاء والتالي للقرآن قد أتى بمثله محتذياً فلا يكون بذلك معارضاً . وعلى هذا أيضاً كان يقع التحدي من العرب بعضها بعضا بالأشعار على سبيل الابتداء والأمر في هذا واضح "، وحقيقة الإعجاز تكمن في تاريخه وفي أثره وفي حقائقه وهناك تمايز بين التحدي والمعارضة[٣].

ونقف عند عبارة (صورة الكلام) و (مفهوم التعارف بالحقيقة) وكل ذلك من لغة العرب وبه تكلمت فقال الخفاجي [٤]: "ولا خلاف بين الأمة أن المسموع في المحاريب كلام الله تعالى على الحقيقة. والجواب عن هذا: أن إضافة الكلام إلى المتكلم أن كان الأصل فيها أن يكون من فعله فقد صار بالتعارف يضاف إليه إذا وردت مثل صورة كلامه . ولهذا يقولون فيما نسمعه الآن هذه قصيدة امرئ القيس وأن كان الفاعل لذلك غيره. وقد صار هذا بالتعارف حقيقة حتى لا يقدم أحد على أن يقول ما سمعت شعر امرئ القيس على الحقيقة . وقد تخطى ذلك إلى أن صاروا يشيرون إلى ما في الدفتر ويقولون: هذا علم فلان وهذا كلام فلان. لما كان مثل هذه الصورة".

المبحث الرابع: فصل في اللغة

واهم المسائل التي تم عرضها ومناقشتها مسالتان :

المسالة الأولى: مفهوم مصطلح اللغة بين الدرس المعجمي باعتبار ما قالت العرب وتكلمت به "اللغة عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام أو يكون توقيفاً : يقال في لغة العرب : أن السيف القاطع حسام. أي تواضعوا على أن سموه هذا الاسم . وتجمع لغة على لغات ولغين ولغون . وقد قيل في اشتقاقها أنها مشتقة من قولهم : لغيت بالشيء إذا أولعت به وأغريت به . وقيل: بل هي مشتقة من اللغو وهو النطق . ومنه قولهم سمعت لواغي القوم أي أصواتهم ، ولغوت أي تكلمت"،

---

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية/٢٨١.

(٢) سر الفصاحة/٧١.

(٣) ينظر إعجاز القران والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، تحقيق:عبد الله المنشاوي، مكتبة الايمان، القاهرة، ط/١، ١٩٩٧م/١٤٣،١٣٤.

(٤) سر الفصاحة/٧١.

مع بيان وتأصيل لمفهوم وعبارة (لغة بني تميم) في قوله: "فأما قولهم: في لغة بني تميم كذا وفي لغة أهل الحجاز كذا فراجع إلى ما ذكرناه . والمعنى أن بني تميم تواضعوا على ذلك ولم يتواضع أهل الحجاز عليه. والصحيح أن أصل اللغات مواضعة وليس بتوقيف "، وكذلك عبارة (إن أصل اللغات مواضعة وليست توقيف)[1].

وذلك بدليل المفارقة بين الأسماء والمسميات والاستدلال بنص القرآن الكريم: "وقد حمل أهل العلم قوله تعالى : {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } سورة البقرة/٣١ على مواضعة تقدمت بين آدم عليه السلام وبين الملائكة على لغة سالفة ممن خاطبه الله تعالى على تلك اللغة وعلمه الأسماء ولولا تقدم لغة لم يفهم عنه عز أسمه"[2].

المسالة الثانية: خصائص اللغة العربية (الأدب المقارن)[3]

واهم تلك الخصائص التي أشار إليها الخفاجي على النحو الآتي:

١ - كثرة الأسماء للمسمى الواحد.

٢ - الإيجاز مع الاختصار ووفاء المعاني.

٣ - الفصاحة هي المعيار التي تميز الاستعمال اللغوي.

٤ - الأساليب والفنون الإبداعية.

٥ - تجنب الثقل في الاستعمال والنطق بها والتلفظ مع سلامة النطق اعتمادا على الخفة.

٦ - ضوابط ومعيار صوتي وقواعد لسانية من تلك العبارات عند الخفاجي (٤) منها:

قوله: (فلا يكاد يجىء في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واح دة لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله)، وعبارة (وحروف الحلق خاصة مما قل تأليفهم لها من غير فصل)، وعبارة (فأما القاف والكاف والجيم فلم تتجاوز في كلامهم البتة لم يأت عنهم قج ولا جق ولا كج ولا جك ولا قك ولا كق)، وعبارة (أن المكرر معرض في أكثر أحواله للإدغام لأنك تقول فرس أمق).

٧ - فضل اللغة العربية نابعة من أخلاق أصحابها العرب ومقومات سلوكهم من القيم والأخلاق، وقد فصل القول فيها وهي (الكرم والجود ووالوفاء والتضحية والبأس والنجدة وطاعة الغضب والحمية وهم أصحاب السرى والتاويب والسفر والترحل وأصحاب العقل والفكر والرأي مع فضل الإيمان والدين والتمسك بالشريعة وحب الذكر و جميل الثناء والغيرة والصبر والجلد ومراعاة الأنساب.

فمن دوافع البحث اللساني عند العرب الدافع الديني والدافع العاطفي وهو تعلق العرب بلغتهم والدوافع الذاتية مثل وجود الشعر العربي ومنها الباعث الاجتماعي والسياسي[5].

---

(١) ينظر المصدر نفسه/٧٢.

(٢) سر الفصاحة/٧٣.

(٣) نفسه/٧٣-٧٥.

(٤) نفسه/٨٩-٩٠.

(٥) ينظر علم اللسان العربي/١٠٥-١٠٧.

لغة الضاد ولغة ا لانتساب الى الحروف قال الخ فاجي(١): "وقد خلت اللغة العربية من حروف توجد في غيرها من اللغات لا سيما لغة الأرمن فإنها على ما قيل ستة وثلاثون حرفاً إلا أنك إذا تأملتها وجدت بعض الحروف التي فيها يتشابه ببعض كثيراً على حد تشابه الظاء والضاد في لغة العرب. فإن هذين الحرفين متقاربان لأجل ذلك احتاج الناس إلى تصنيف الكتب في الفرق بينهما ولم يتكلفوا ذلك في غيرهما من الحروف "، ثم قال "فأما الأعراب فقل من رأيت من فضحائهم اليوم من يفرق بينهما في كلامه وهذا يدلك على **شدة التشابه وقوة التماثل** ولست أقول هذا على وجه الأحتجاج بكلامهم فإنهم الآن محتاجون إ لى أقتباس اللغة من الحضر وإصلاح المنطق بأهل المدر . إلا أنهم قل ما يتفق منهم العدول عن النطق بحرف من ال كلام إلى حرف آخر إلا والشبه فيهما قوى على ما قدمت ذكر هُ" وكل ذلك يكشف عن ظاهرة ان اللغة علم له اسسه وقواعد وضوابط منها: الوضوح والموضوعية والنسقية والضبط الذاتي(٢).

خاتمة كتاب الخفاجي: (فصل فيما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته)(٣)

تعد خاتمة الكتاب رسالة إلى طلبة العلم ومن يهتم بالتعبير والإنشاء والكتابة الأدبية ومدار الرسالة بيان حاجتة مؤلف الكلام إلى العلم وما يتعلم منه لذا أوردها حسب ذكرها في الكتاب وهي على النحو الآتي:

١) معيار فقه اللغة ف "الذي يحتاج مؤلف الكلام إليه من معرفة اللغة التي هي لغة العرب قدر ما يعرف كل شئ باسمه الذي وضعته له".
٢) معيار إدراك الفصيح والأفصح اي "يجب أن يكون ذلك الاسم أفصح أسمائه إن كانت له عدة أسماء وقد بينا الطريق إلى معرفة الفصيح فيما مضى من كتابنا هذا".
٣) معيار صرفي "فإذا عرف ما ذكرته من اللغة احتاج إلى معرفة ما يتصرف ذلك الاسم عليه من جمع وتثنية وتذكير وتأنيث وتصغير وترخيم ليورده على جميع ما يتصرف فيه صحيحا غير فاسد".
٤) وهذا يدعو الى معرفة علم النحو "ولهذا افتقر إلى علم النحو وسأذكر قد ر ما يحتاج منه فإذا علم ما أشرت إليه افتقر إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر كثيراً ليجد إذا ضاق به موضع أو حظر عليه وزن إيراد اسم العدو ل إلى غيره. ويحتاج في علم النحو إلى معرفة أعراب ما يقع له في التأليف حتى لا يذكر لفظة إلا موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب أو بناء على حسب ما وردت عنهم ...".

(١) سر الفصاحة/٧٩.
(٢) ينظر المعنى والكلمات/٣٣-٤١.
(٣) ينظر سر الفصاحة/٢٧٩-٢٨٠.

٥) معيار ذوقي يدعو الى تعلم بحور الشعر ا لعربي وما يلحقه من القوافي "ويحتاج الشاعر خاصة إلى معرفة الخمسة عشر بحرا التي ذكرها الخليل ابن أحمد وما يجوز فيها من الزحاف ولست أوجب عليه المعرفة بها ولينظم بعلمه فإن النظم مبنى على الذوق ولو نظم بتقطيع الأفاعيل جاء شعره متكلفاً غير مرضى وإنما أريد له معرفة ما ذكرته من العروض لأن الذوق ينبو عن بعض الزحافات وهو جائز في العروض وقد ورد للعرب مثله فلولا علم العروض لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وبين ما لا يجوز ".

٦) معيار دلالي وهي معرفة المشهور من اخبار العرب "ويحتاج أيضاً إلى معرفة المشهور من أخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها وصفة الحروب التي كانت لها وما له قصة مشهورة وحديث مأثور فإنه قد يفتقر في النظم إلى ذكر شئ منه ويكون للمعنى به تعلق شديد وإذا ورد استحسن".

٧) الاطلاع على فصاحة الاستعمال ودقة التعبير من خلال قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي "ويحتاج الكاتب إلى جميع هذا أيضاً ويختص بما يفتقر إليه من معرفة المخاطبات وفنون المكاتبات والتوقيعات ورسوم التقليدات مع الاطلاع على كتاب الله تعالى وشريعته وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته...".

وصية الخفاجي لأهل العلم فقد ابدع فيها وهذا نصها "والوصية لهما لهما ترك التكلف والاسترسال م ع الطبع وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل المعرفة وبغض الإكثار والإطالة وتجنب الإسهاب في فن واحد من فنون الصناعة فإن كلام الإنسان ترجمان عقله ومعيار فهمه وعنوان حسه والدليل على كل أمر لولاه لخفي منه وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف واجتماع اللب عند النظم والتأليف وإذ قد انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فالواجب أن نختم الكتاب"، وكل ذلك يكشف عن خصائص اللغة الإنسانية وما تمتاز به وهي الاعتباطية والازدواجية والتمايز والإبداعية[1].

بعد هذه الرحلة العلمية في رحاب البحث البلاغي مع ابن سنان الخفاجي يمكن أن نسجل أهم الملاحظات التي تم رصدها ومنها : الترتيب المنطقي في بحث القضايا اللغوية، منهج الاستقراء والتعليل والقياس كان واضحا في أسلوب الخفاجي، دقة عبارة العلماء في الاستدلال والتحليل، برز في البحث مفاهيم ومصطلحات لسانية مع بيان سبب التسمية لها .

---

(١) ينظر تفصيل ذلك محاضرات في اللسانيات، د.فوزي حسن الشايب، دار الثقافة، الأردن، ط/١، ١٩٩٩م/٢٣-٢٤.